العقيدة الجديدة - أيديولوجيا إنكار الأيديولوجيا

رامي أسوم



منذ منتصف القرن العشرين، بدأت تظهر بين حين وآخر صيحات تعلن أن البشرية دخلت عصر «ما بعد الأيديولوجيا»، وكأن الناس قد تعبوا من الأفكار الكبرى، من الشعارات الشمولية، ومن وعود الخلاص. الأميركي دانيال بيل كان من أوائل من صاغوا هذا الخطاب في الخمسينيات بكتابه الشهير «نهاية الأيديولوجيا»، إذ قدّم المجتمع الصناعي الحديث كعالم لا يحتاج إلى رؤى سياسية كبرى، بل إلى تقنيات إدارة وعقلانية عملية. وبعد عقود، جاء فرانسيس فوكوياما في التسعينيات ليعلن أن التاريخ نفسه انتهى، وأن الديموقراطية الليبرالية والسوق الحر أصبحا الشكل النهائي لتنظيم المجتمعات. ومنذ ذلك الحين، انتشرت فكرة أن الأيديولوجيات صارت عبئاً وأننا في زمن «الواقعية» و«العلمية».

في العالم العربي، ومع تعمّق الأزمات، انتقلت هذه المقولة إلى ألسنة السياسيين والإعلاميين والخبراء الاقتصاديين، حتى باتت لازمة تتكرر في الحوارات التلفزيونية والندوات والبيانات الرسمية: كفانا أيديولوجيات، نحن في زمن الواقعية. الجملة تُقال بنبرة الواثق الذي يظن أنه نزع الغشاوة عن العيون وأنه صار يتعامل مع «الحقائق كما هي». لكن الحقيقة أن هذه الجملة بحد ذاتها هي أيديولوجيا مكتملة الأركان، بل أخطر أنواع الأيديولوجيا: الأيديولوجيا التي تتنكّر لنفسها وتقدّم نفسها كواقع طبيعي، وكأنها ليست خياراً بل قدر.

في لبنان، كلما ارتفعت أصوات مطالبة بالعدالة الاجتماعية أو بإصلاح جذري للنظام، يخرج السياسيون (وجوقاتهم من الإعلاميين) ليذكّروننا بأن «الواقعية» لا تسمح بذلك. الواقعية هنا لا تعني شيئاً سوى الاستسلام لموازين القوى كما هي: نظام طائفي متجذر منذ الطائف، اقتصاد ريعي قائم على المصارف والديون، توزيع ثروة غير عادل. ما يسمّونه واقعية ليس سوى أيديولوجيا سلطوية لتبرير بقاء الوضع القائم.

الأمر نفسه يتكرّر في الاقتصاد على مستوى أوسع. حين تتبنّى الحكومات سياسات اقتصادية معيّنة، لا تقدّمها كخيارات سياسية بل كقرارات تقنية ضرورية. رفع الدعم، الخصخصة، زيادة الضرائب غير المباشرة: كلها تُقدَّم كقوانين طبيعية مثل الجاذبية، بل ويؤتى بأشخاص تُطلق عليهم صفة التكنوقراط (أي حياديين تقنيين) لتنفيذ تلك السياسات (في المناسبة، هذه ليست موضة مستجدة، بل حتى موسوليني استعملها وجاء بحكومة تكنوقراط لتنفيذ سياساته الفاشية للقضاء على النقابات العمالية بعد نجاح الثورة البلشفية في روسيا، والخوف من انتقال العدوى إلى إيطاليا)

مَن منّا، مثلاً، لا يتذكّر العبارة التي كان يُرشق بها كـل مَن ينتقـد سياسـة الاسـتدانة في منتصـف تسـعينيات القـرن الماضـي: «ليسـت المشـكلة في حجم الـدين، لأننـا عندما نكبّر حجم الاقتصاد اللبناني ينخفض حجم الدين بالنسبة إلى الاقتصاد، وتصـبح خدمة الدين أسهل». هذه العبارة أصبح يردّدها رجل الشـارع كمـا السياسـي. كـانت تلـك إحـدى أخطـر سـرديات النيوليبراليـة الـتي اكتسـحت العـالم في تلـك الحقبـة باعتبارها «عقلانية وعلمية» بينما هي تخفي وراء ذلك تحيّزاً واضحاً لمصلحة أصحاب رأس المال الذين يبحثون عن استثماراتٍ مضمونة بعوائد مرتفعـة. ومَن أفضـل من الدولة لضمان تلك الاستثمارات؟

ومع أن توماس بيكيتي شرح أنه من المستحيل أن تصح تلك المقولة في حال كانت الفائدة على الدين أعلى من نمـو الاقتصـاد السـنوي (إذا كـانت الدولـة تقـدّم فائـدة 17% على سـندات الخزينـة كمـا حصـل في التسـعينيات، فيجب أن يكـون النمـو الاقتصادي السنوي أعلى من 17% لاسـتدامة خدمـة الـدين، وإلا فإننـا سـندخل في دوامة نحو القعر. والنمـو في لبنـان لم يصـل إلى نصـف تلـك الأرقـام، لكن الفوائـد ظلت مرتفعة). ومع ذلك، كان يتم اتهام من يرفـع الصـوت بأنـه «مـؤدلج» وبالتـالي «متحيّز فكرياً ضد الازدهار والتقدّم».

اللا-أيديولوجيا تلك، هي التي صـوّرت للنـاس (النـاخبين) أن مَن يملـك الشـركات أو يديرها بنجاح هـو الأصـلح لإدارة البلـد، مـع أنّ معظم التجـارب في التـاريخ الحـديث أثبتت العكس تماماً. الناس تعلم كل هذا، ومع ذلك فإنها تصرّ على «الإيمان» بقدرة أولئك على انتشالهم من حالتهم المزرية (كما يشرح سلافوي جيجك لاحقاً).

المضحك أنّ مَن يسخر من المؤمنين بالمخلّص المنتظر، ينتظر هـو بـدوره «المـانح الدولي المنتظر»

ألا يدخل كل ذلك ضمن «أيديولوجيا اللا-أيديولوجيا»؟ كيف يقتنـع النـاس بهـذا؟ هنـا نستدعي ميشال فوكو الذي بيّن أن السلطة ليسـت مجـرد أداة قمـع بـل أداة إنتـاج معرفـة تـدخل في الأجسـاد والعـادات. الإعلام اللبنـاني مثـال صـارخ: يضـبط حـدود النقـاش ويحـدّد مـا يمكن التفكـير فيـه. أي حـديث عن إعـادة توزيـع الـثروة أو عن سياسات بديلة يُقدَّم فوراً كـ«شعبوية» أو «خيال». هكـذا يتحـوّل المـواطن إلى مـا سمّاه فوكو «جسداً منضـبطاً»، يـذهب إلى عملـه، يتكيّـف مـع انهيـار الخـدمات من صحة وتعليم رسـمي، ويعيـد إنتـاج النظـام يوميـاً من دون أن يـدري، بـل ويعتـبر أن الإصلاح يمكن أن يبدأ مثلاً عبر تجميل الشوارع، أو غير ذلك من المظاهر السطحية، من دون المساس بأصل المشكلة: التوزيع العادل للثروة والدخل.

قد يقول بعضهم، نحن نقصد بالأيديولوجيا تلك الغيبيّة منها: انتظار المخلّص أو تدخّل السماء في ما يجب أن يجري على الأرض. لكن لا أحد يشرح لنا كيف نواجه تحـالف

اللا-أيديولوجيا (أميركـا) مـع الأيـديولوجيا الغيبيـة (إسـرائيل) للسـيطرة على ثرواتنـا وقراراتنا السيادية، واحتكارهم للقـوة العسـكرية وضـربهم لكـل القـوانين الإنسـانية و«الإلهية» معاً بعرض الحائط. هل كان الفلسطينيون ليستطيعوا الصـمود لحـد الآن من دون اعتمادٍ على الغيبيّات؟ وهل كان اللبنانيون قادرين على تحريـر الجنـوب من دون وعودٍ إلهية؟

أمّـا المقارنـة مـع بـاقي الشـعوب كالفيتنـاميين مثلاً يقودنـا مباشـرةً نحـو تبنّي أيديولوجيات (الشيوعية) أخطر من تلك الدينية بالنسبة إلى الداعين إلى نبذ العقائـد واعتناق الواقعية.

المضحك أنّ مَن يسخر من المؤمنين بالمخلّص المنتظر، ينتظر هـو بـدوره «المـانح الدولي المنتظر». مَن يضحك على وعد النعيم في الآخرة، يَعِد بازدهار بعد عشـرين سنة من الإصلاحات. مَن يسخر من الغيبيّات، يقدّس القوّة الغاشمة. هي غيبيّة بلغـة جديدة. في لبنان، مؤتمرات «باريس 1» و2 و3 و«سيدر» تحوّلت إلى طقـوس حج اقتصادي: ننتظر المانحين كمـا ينتظر المـؤمن معجـزة السـماء. نـنزع نقـاط القـوة الوحيدة في لبنان مقابل «احتمال ألا تهاجمنا إسرائيل وتدمر مدننا»... أليسـت هـذه غيبيّة احتمالية تتعلّق بقـرارٍ من الأمـيركي والصـهيوني، لا سـلطة لنـا عليـه ولا تـأثير سوى بالدعوات والابتهال؟ بماذا تختلف إذاً عن الغيبيّات الإلهية؟

وهنا تكمن المفارقة الكبرى: المـواطن الـذي يـرفض الأيـديولوجيا ظنّـاً أنـه متحـرّر، يصـبح العبـد الأكـثر طاعـة. لأنـه حين يتخلّى عن الأيـديولوجيا، يـترك فراغـاً تملـؤه السلطة. يتبنّى نظرتها إلى دوره: مجـرد فـرد في سـوق، نـاخب كـل أربـع سـنوات، مستهلك يحرّك الاقتصـاد. يتبنّى أيضـاً منطقهـا في التوزيـع: «مَن يعمـل أكـثر يـربح أكثر»، مع أنّ أكبر الثروات يتم جمعها ليس من العمل، بل من المـيراث والاحتكـار. هكذا يتحوّل المواطن إلى أداة لإعادة إنتاج النظام.

سلافوي جيجك يشرح هذه المفارقة بدقة؛ الأيديولوجيا ليست فقط ما نؤمن به، بـل ما نفعله من دون أن نفكـر. هـو يلخصـها بجملتـه الشـهيرة: «هم يعرفـون جيـداً مـا يفعلون، ومع ذلك يفعلونه». المواطن اللبناني يعرف أن السياسي يكذب، يعرف أن المصرف يسرق، يعرف أن السوق لا يعمل، لكنه مع ذلك يتصـرّف كـأن كـل شـيء طـبيعي. الأيـديولوجيا تعيش في الممارسـات اليوميـة، في المـزاح والاسـتهلاك والاعتياد، وفي مفهومنا لمعنى «النجاح». ومَن يظن أنـه خـرج منهـا، يعيشـها بـأكثر صورها صفاء.

جاك لاكان، بدوره، يذهب أعمق حين يقول: «الرغبة هي رغبة الآخر». مـا يعـني أن الإنسان لا يعرف ما يريد، بل يرغب وفق مـا يحـدّده الآخـر الكبـير: الإعلام، الدولـة، السوق، أميركا. المواطن الذي يظن أنه يريد فقط حياة طبيعية من دون «فلسـفات

عميقـة/ عقيمـة»، هـو في الحقيقـة يـرغب بمـا أُملي عليـه من فـوق. حـتى رفضُـه للأيديولوجيا هو رغبة مستعارة. لاكـان يعلّمنـا أن مـا يبـدو طبيعيـاً أو محايـداً هـو في جوهره مشبع بالرموز.

أمّا توماس بيكيتي، فيذكّرنا أن كل نظام استغلالي عبر التاريخ احتاج إلى تـبرير. في الإقطاع كان التبرير هو الحقّ الإلهي وجذور العائلة، في الاستعمار خطاب الحضارة، في الرأسمالية الصناعية فكرة الكفـاءة الفرديـة، وفي النيوليبراليـة الحاليـة خطـاب الواقعية الاقتصادية، وكـل تلـك التـبريرات تسـتند إلى أيـديولوجياتٍ يتم غرسـها في العقول لهدف معيّن: إبقاء الواقع على حاله بالنسبة إلى مَن يملك السلطة.

لبنان تجسيد مثالي لهذه السلسلة: أزمة الدين العـام تُقـدَّم كحقيقـة مطلقـة، بينمـا هي نتيجـة خيـارات سياسـية محـددة أملتهـا علينـا أيـديولوجيا اللا-أيـديولوجيا (النيوليبراليـة) الـتي سـادت في بـدايات القـرن الواحـد والعشـرين. لكن الخطـاب السائد يحوّلها اليوم إلى قدر يتطلّب مزيداً من التقشف يدفع ثمنـه موظفـو القطـاع العام بتآكل رواتبهم، والمواطنون بتدهور الخدمات الرسمية.

إذاً، ليست المشـكلة في وجـود الأيـديولوجيا، بـل في إنكارهـا وإنكـار دورهـا الـدافع للشعوب نحو التحرّر الحقيقي. ليست المشـكلة في الشـعارات، بـل في الشـعارات التي تدّعي أنها ليست شعارات. مَن يصرخ: كفانـا أيـديولوجيات! لا يفعـل سـوى أن يردّد أيديولوجيا بعينها – أيديولوجيا السلطة بوجهها النيوليـبرالي. ومـا نحتاجـه اليـوم ليس أن نتظاهر بالحياد، بل أن نختار أيـديولوجيا بديلـة نعلنهـا بلا خـوف: أيـديولوجيا العدالة الاجتماعية، السيادة، والتحرّر من الهيمنة المالية والثقافية.

أمّا أولئك الذين يظنّون أنفسهم عقلانيين لأنهم يرفعون شـعار «الواقعيـة»، فهم في الحقيقة يعيشـون في أسـاطير لا تقـل سـذاجة عن أي أسـطورة دينيـة من العصـور السحيقة. وما السخرية الأكبر إلا أن دعاة «اللا-أيديولوجيا» يبدون كأنهم تحرروا من الطفولـة الفكريـة، لكنهم في الحقيقـة عـادوا إليهـا: يصـدّقون حكايـاتٍ خرافيـة عن ليبراليـة فرضـها الغـرب عليهم من فـوق، ويتخلّى عنهـا اليـوم لمصـلحة أيديولوجيـة جديدة تقوم على «مصلحتي فوق كل اعتبار وأعلى ما في خيلكم اركبوه».